بينالي السينما العربية في باريس يعلن برنامج دورته الثامنة:

شريط «حليم» للافتتاح ضمن تكريم الراحل أحمد زكي وأفلام المخرجين الشباب تكتسح المسابقة الرسمية

زياد الخزاعي*

■ كشفت مؤخراً ادارة بينالي السينما العربية الذي ينظمه معهد العالم العربي في باريس عن برنامج دورته الثامنة (ما بين 22 وحتى 30 من تموز (ايلول) المقبل)، موجهاً تحيته الخاصة الى ذكرى الفنان المميز الراحل احمد زكي الذي خطفه الموت العام الماضي بعد صراع مرير مع المرض من دون ان يمنعه من انجاز شريط عمره حول حياة العندليب عبد الحليم حافظ، والذي اختارته ادارة البينالي (برئاسة الناقدة ماجدة واصف) ان يكون فيلم الأفتتاح (بعد عرضه العالمي الأول في سوق الفيلم بـ«كان» ايار الفائت وهو من انتاج شركة القطب الأعلامي المصري عماد الدين اديب الذي عضّد ايضاً باكورة المخرج الشاب مروان حامد «عمارة يعقوبيان».

«حليم» قد لا يكون العمل الأمثل لتبيّان ابداع الراحل زكي (أميل شخصياً كثيراً الى اشتغالاته المميزة في «البرئ» 1987 مع عاطف الطيب، و«أرض الخوف» 2000 مع داود عبد السيد، وأعتبر قمة انجازاته دوره في «زوجة رجل مهم» 1988 مع محمد خان، والتي ستُعرض ضمن التكريم، اضافة الى: «الحب فوق هضبة الهرم» 1987، «أحلام هند وكاميليا» 1988، «ضد الحكومة» 1992، «استاكوزا» 1996، «هستيريا 1997»، «أيام السادات» 2000) اذ ان مساحة ادائه المبتسّرة كانت محكومة الى حد بعيد مع قدراته الجسدية التي هدّها المرضُ وعلاجه، فسنراه جالساً في اغلب المشاهد وهو يسجلّ شهاداته امام ميكرفون الأذاعة المصرية (يمثلها هنا السوري جمال سليمان!)، فيما تحرّكت الكاميرا (من توقيع ايمن ابو المكارم) بعصابية جليّة في مشاهد الوصلات الغنائية للتمويه على الفوارق البيّنة بين المؤدي والأصل. هذا العمل معقّود، من دون منازّع، للشاب هيثم نجل الممثل الراحل الذي يؤدي مراحل الصعود الأولى للعندليب. وبدا واضحاً استفادة المخرج شريف عرفه من اوصاف التشابه بين الأب والأبن ليُداخل بين الأزمنة المتضاربة في حياة مطربنا الذي عانى من المرض كما زكي، من دون ان يبدو الشريط وكأنه سيرة ذاتية سينمائية تقليدية. فعرفه وضع في هاجسه الأول ان الفيلم هو عمل زكي عن حليم وليس تجسيداً له، بمعنى ان حياة المطرب الشهير معروفة للجميع، والمهم هو ايجاد اكبر مساحة للاول على حساب صنعة الثاني! لذا فالاسترجاعات الدرامية وكثّرتها، وتمظّهرات الوجوه التي دارت حول فلك حليم، ورموز السياسة والثقافة والعشق (المشهد البائس والمجتزأ حول علاقة حليم بالراحلة سعاد حسني!!)، وهزّات الحروب ومن ثم الهزيمة سيعرضها المخرج عرفه كوسائل ايضاح خالية من الابداع وروحه، لتتحول مشهديات عمله الى استقطاعات تمثيلية اجدر بمسلسل تلفزيوني (كتبه اصلاً المؤلف المعروف محفوظ عبد الرحمن وأُبقي على اسمه في عمل عرفه!!) عنه بشريط سينمائي تفاخر بطوله البالغ 148 دقيقة.

مسابقة هذه الدورة تضّم افلاماً منتقّاة ستكون سبقاً في مشاهدتّها لعرب باريس وأكتشافاً لاهلها من الفرنسيين والمقيمين، ولعل افلمة العمل الروائي ذائع الصيّت «عمارة يعقوبيان» للكاتب علاء الأسواني ستكون المنافس الاكثر ثقلاً بين الاشرطة الخمسة عشر المتنافسة في خانة الأفلام الروائية الطويلة (مقابل 12 في دورة 2004)، وهي مهمة حرجةً ستواجه لجنة التحكيم (ما زالت قيدّ التشكيل) التي تضم المخرج المصري داود عبد السيد، وزميله المغربي محمد عسلي (صاحب «الملائكة لا تحلق فوق الدار البيضاء»)، الفرنسية دومينيك كابريرا، الناقد اللبناني وليد شميط، المخرجة الجزائرية رشيدة كريم وزميلتها الايطالية مونيكا ماورر، ليس لان الفيلم يقدم خامةّ سينمائية موهوبة متمثلّة بمروان حامد والتي تجلّت بقوة في عمله القصير «لي لي» المقتبس عن قصة قصيرة ليوسف ادريس، بل لانه يشكّل مع اقرانه المتنافسين على جوائز المعهد الثلاث الكبرى، ظاهرة شبابية اكتسحت الخانة تقريباً هذه المرة، اذ ان هناك احد عشر مخرجاً يقدم اغلبيتهم باكوراتهم السينمائية. (ندوة هذه الدورة ستخصص حول «توفير الظروف المناسبة لظهور سوق للسينما العربية الأوروبية»، وهو ما يستكمل الشعار الثانوي الذي ابرزته الأدارة: تقام الدورة في اطار «كرفان السينما العربية ـ الأوروبية».

ولئن يعكس هذا التجمع صيغة ايجابية في ما يتعلق بعنادهم في تحقيق اعمالهم، فهو من باب آخر يعكس ازمة الانتاج السينمائي وتوجهاته العامة، فأعداد المنجز السينمائي في العالم آخذ في النقصان وليس العكس، فيما اكلافه اخذة في التضخم. صحيح ان هناك «كارتلات» انتاجية (على شاكلة «غود نيوز» المصرية ـ الخليجية و«روتانا» السعودية) بدأت تطل برأسها وتُطبل ـ ان لم تتبارى ـ الى انتاجات مستقبلية ثقيلة الموازنات، بيد ان الراصد الى عناوينها (التي سُربت بعناد واضح الى صحيفة «فارايتي» الاميركية المتخصصة في الشؤون السينمائية في مهرجاني برلين وكان الاخيرين) سيلاحظ غلبةّ الدعائي المبرمج الساعي الى المزاحمة داخل الأسواق، اكثر منه تأسيس منهجية سينمائية تَضمن صناعة الشريط المميّز واستمراريته، ومن ثم تراكمّ خبرة تقنيّة تضاهي ما هو موجود عالمياً. من هذه النقطة الاخيرة يكون منطق الرهان على «عمارة يعقوبيان» باعتباره صنَعةَ سينمائية تستلف ـ بالدرجة الأولى ـ من سرديات الكلاسيكية السينمائية المصرية، وتجمعت ارادات كثيرة من اجل تكريس نجاحها، مالاً ونجوماً وتقنيات ودعاية مدروسة!

مروان الذي اعتمد على نص اقتبسه والده السيناريست المعروف وحيد حامد، حصّن نفسه بثلاثة اسوار: قصٌ روائي شديد التقليدية وتراتبي البناء، ضَبط احترافي للأداءات ادى الى الغاء المبالغات التعبيرية، وأخيراً اعتناء جليّ في موازين الصورة ومشهدياتها (تصوير، الوان، ديكورات، تحريك

شخوص وغيرها) الامر الذي يجعل من شريط حامد انموذجاً شاذاً في فرجته مقارنة مع فسادها في الكثير من الاشرطة التي تكتسح السوق المصري في الأونة الأخيرة! عمارة يعقوبيان تضمّ حيوات متعددة المصائر: العجوز زكي الدسوقي (أداء لامع ومفاجئ من عادل امام)، آخر احفاد الباشوات، المصر على مغامراته النسوية والآفل كمرتبة اجتماعية سينتهي في احضان (عاشقاً ومن ثم زوجاً) ابنة السطوح بثينة (التونسية هند صبري) قبل ان تطرده شقيقته دولت (أسعاد يونس) بعد سرقة بائعة هوى خاتمها الثمين منه!.هناك طه الشاذلي الحبيب السابق لبثينة الذي سينتهى اصولياً. والشيخ عزام (نور الشريف) المرابي الذي سيسعى بكل الوسائل ليصبح نائباً. هناك مالك (أحمد بدير) اللاهث خلف بثينة للايقاع بزكي وسرقة ملكه في العمارة، التي سنتبيّن صيرورتّها كمجتمع مصغّر لقاهرة سريعة التغيّر والازاحات. (مصر تشارك بشريط اخر للمخرجة كاملة ابو ذكري «عن العشق والهوى» سنتعرض له لاحقاً).

اليمني بدر بن الحرصي سيشارك بباكورته «يوم جديد في صنعاء القديمة» حول قصة حب ملتبسّة تحدث في الأحياء الآسرة للعاصمة اليمنية بطلها الشاب طارق الذي يعمل مساعداً لمصور فوتوغرافي غربي، ويعيش محنة ذاتية في شأن رضوخه لزيجة مدبرة عائلياً وسعيه الى حب شفيف. في ليلة عرسه يختفي فستان العروس لتدور الشكوك والمساعي في اعادته قبل ان تكبر الفضيحة. طارق الوحيد الذي سيراه وقد ارتده حسناء تعبر في ظلمة ازقة صنعاء القديمة! (خليجياً سيُعرض ايضاً الفيلم الاول للمخرج العُماني عبد الله الزدجالي «البوم»). زميله السوري نضال الدبس سيتنافس بعمله الأول «تحت السقف» (الفيلمان اخترتهما شخصياً ضمن عروض خانة «أكتشافات دبي» حينما كلفتني ادارة مهرجان دبي السينمائي الدولي الاشراف عليها وبرمجتها خلال فعاليات الدورة الثانية التي نُظمت في ديسمبر الماضي، وحصدا اهتماماً شعبياً معتبراً، تجلى في الحوارات الحماسية التي تبعت عروضهما هناك) حول حكاية حب مؤود تحت سقف دمشق الذي ينضح ماء اربعين عاماً من الذكريات والتشظيّ التي تمرّ بها شخصياته الشابة وهي تعاني من رتابة حياتها الضاغطة. تحت هذا السقف سيلدّ حب البطل مروان للينا كبديل عن خسارته اعز اصدقائه ومثلّه الأعلى والتي اصبحت ارملة هذا الأخير. لكن هل ستقدم دمشق فسحتها الحقيقية لأحتمالات عشق لا يُرتضى به، في وقت يحاصر البطلين صمت المدينة القديمة؟

من لبنان هناك ثلاث مشاركات: «البوسطة» باكورّة الشاب فيليب عرقتنجي الذي سيستغل عزّم فرقة راقصة تؤدي الدبكة اللبنانية بروح معاصرة للفوز بجائزة اهم المنافسات في البلاد، على خلفية قصة حب تجمع بين قائد الفرقة وأحدى المؤديات. وهم يجّولون البلاد طولاً وعرضاً داخل حافلة (بوسطة تُذكر بقرينتها التي اطلقت شرارة الحرب الأهلية!)، ليقدم رؤية شخصية بالغة التهكّم ـ عبر الرقصات والاغاني ـ في شأن احوال السياسة، الطائفية، القيّم، العائلة والاستهلاك الذي اصبح سمةّ لبنانية بأمتياز!!. فيما يقدم مواطنه المقيم في السويد جوزيف فارس كوميدياه «زوزو» التي ترصدّ محنةّ الصبيّ الذي سيفلت من نار الحرب ملتحقاً بجده وجدته في غربتهما السويدية، ليواجه استحقاق الأندماج في مجتمع يغلّب الفردانية على العواطف. زوزو البرئ سيتحايل ـ كمنطق لتربية الحرب ـ من اجل ان يجد اصدقاء وخلاّناً. اما المخرج وجدي معوضّ المقيم في كندا فيقدم باكورته «الساحل» الذي يحمل خطاباً سياسياً استفزازياً ومتحاملاً ضد الطرف السوري، عبر قصة شاب مسيحي مغترب يواجّه محنةّ دفن جثة والده في ضيعته الجبلية. فهذا الوافد سيكون رائياً لخطف الجنود السوريين قبور وجثث الموتى كي يُنزع عنها ذهب اسنانها (كما فعل نازيو هتلر!). ومع فشله لا يجد سوى ساحل بحر لبنان كي يدفن الجثة وسط امواجه! هذا العمل ضعيف الصنعة وفاسد النيّة، متهافت في خطابه السياسي القائم على الشتيمة والتعالي الفجيّن، اضافة الى عنصريته وطائفيته القبيحتين. ولم اجد تبريراً لضمّ هذا العمل المريّب ضمّن المسابقة!

العراق يحضر عبر «أحلام» محمد الدراجي (وهو الروائي الثاني الذي أُنتج في البلاد منذ الأحتلال الامريكي. قبله كان «غير صالح» لعديّ رشيد) الذي يجعل بطلته الشابة صنواً لوطن خطفه نظام مستبد قبل ان تحتله قوات غريبةّ غازيةّ لتمعّن في تفكيكه وتخريبه. احلام تخسر خطيبها وتنتهي في مستشفى الأمراض العقلية، ليغتصبها لصوص، ومن ثم تهيّم في شوارع الخراب البغدادية مع القصف الامريكي، قبل ان تقودها خطاها وقرارها الى الانتحار برمي نفسها من سطح بناية وزارة المالية!!. هناك نموذجان آخران للمرارة العراقية: الجندي علي الذي يقبض عليه بتهمة محاولة الهروب من الخدمة العسكرية وتُقطع أذنه، بينما كان يحاول انقاذ رفيقه حسن، والطبيب مهدي العامل في المستشفى حيث يشهد اضطهاد نزلائه السياسيين. فيما يشارك الكرديان مسعود عارف صالح وحسين حسن علي بشريطهما «زمن النرجس» الذي قدم عالمياً في مهرجان برلين الاخير (فبرايرالفائت) وهو عمل اقرب للبناء التلفزيوني، ساذج الصنعّة ضعيفها حول شقيقين منضويين تحت راية مليشيات «البشمركة» ضد قوات صدام ومن اجل تحرير كردستان!

السعودي عبد الله المحيسن سيقدم فيلمه الروائي الأول «ظلال الصمت»، بعد العديد من الاعمال الوثائقية آخرها «الصدمة» عام 1991 حول احتلال الكويت، والذي يقارب فيه موضوعاً حمالّ لأوجه عدة، فهو هجوم متثاقف على النظم الأستبدادية وظلمها عربياً، ومن باب ثان تحامل على النخبة وفرقتها وأنتهازيتّها.

الكاتب المشهور بديع مراد (أداء مصطنع من السوري غسان مسعود الذي عُرف عالمياً بدور صلاح الدين الأيوبي في «ملكوت الجنة» للبريطاني ردلي سكوت) يتم استدراجه الى «المعهد» ـ وهو مؤسسة غامضة أُشيدت في عمق الصحراء ـ للتخلص من توترّ عصبيّ اصابه اثر تعرض روايته الجديدة الى تحويرات، وايضا خضوعه الى جلسات تأهيل لأستلام، لاحقاً، منصب كبير في وزارة الثقافة!! (غير مفهوم وقوع شخص متنور في زلةّ من هذا النوع!!)، بيد ان بديع يرتكب اثماً يفضح سريةّ استضافته: كتابة رسالة الى زوجته سميرة يعلمها بقبول دعوة «المعهد» مبرراً غيابه الارادي!. وفيما يفشل ازلام السلطة بالعثور على ورقة الاعتراف، تكون هذه الاخيرة شدّت رحالها نحو الموقع المعزول بحثاً عنه وأنقاذه، لتلتقي ـ في ضياعها ـ بالشاب عمر (يملك متجراً للاقمشة اشارة الى شعبية شخصيته وتواضعها) الساعي ايضاً لأنقاذ والده المُغيّب. وبما ان مسعاهما نبيلان، ينقذهما المخرج المحيسن (وهو كاتب النص مع المخرج الجزائري احمد راشدي صاحب الفيلم الأثير «الأفيون والعصا») من تيههما على يد ابن البادية الشيخ فلاح الناصري الذي سيدلهما على موقع المؤسسة سيئة الصيت، قبل ان ينخّى عزائم القبائل لأكتساحه بقوة السلاح و«عتق» رهائنه.

يقود بديع «انتفاضة» مع زميله بهاء الدين خبير الهندسة الإعلامية (الممثل الكويتي محمد المنصور) وصحبة البرفسور حمود والدكتور يحى من ادارة المعهد واللذين فطنا الى انه ليس مؤسسة علمية!!، بل معتقل تُدبر فيه عمليات تصفيّة معارضين (كما هي حالة الكاتب الصحافي عبد الكريم منصورالذي كاد مقتله ان يُلصق كتهمة ببديع!!) ليفسدوا عمل اجهزة غسيل المخ والتنويم والتخدير ما يعيد النزلاء الى صوابهم و«عنفوانهم» في الهجوم على الادارة المتعسفة التي يقودها مدير جائر.

للمكرسين حضوّة في قائمة التسابق. اذ ستحضر المغربية صاحبة «باب السماء مفتوح» (1988) فريدة بليزيد مع جديدها «الحياة البائسة لخوانيتا ناروبي» الذي أُحتفي به في مهرجان سانسبستيان الأسباني، وأقتبسته عن رواية شهيرة للكاتب انخيل فاسكيز تسرد حكاية خوانيتا التي عاشت فورة الحياة في طنجة منذ دخول القوات الأسبانية لها ابان الحرب الأهلية في الجزيرة الأيبيرية ولاحقاً هجرة الاوربيين اليها خلال الحرب العالمية الثانية، قبل ان يأفل بريقها، لتجد نفسها وحيدة في قرية اسبانية تجترح ذكرياتها عن شقيقتها هيلين المتفتحة وصديقتها اليهودية ايستر المغرمة بمغربي الى حد المرض وأخيراً الخادمة المخلصة حمروشة!

زميلتها التونسية سلمى بكار (لها «حبيبة مسكية») ستشارك بـ«خشخاش» حول مأساة زكية (الممثلة ربيعة بن عبد الله) التي تكتشف منذ الأيام الأولى لزيجتها ان بعلها يعاني من الشذوذ الجنسي، وقد فرضت عليها المصاهرة نظرا لثراء عائلته. وهرباً من عزلتها العائلية والأجتماعية تدمن نبتة الخشخاش المخدّرة لتنتهي نزيلة مستشفى للامراض العقلية، قبل ان تعيّ زلتّها وتقرر «تنظيف» حياتها من سقطاتها الشخصية!(هناك مشاركة تونسية أُخرى لألياس بكار «هي وهو»). من الجزائر سيتقدم زميلتها جميلة صحراوي عملها الطويل الأول «بركات» الذي أُشيد به عند عرضه في خانة «بانوراما» في مهرجان برلين الأخير (فبراير الفائت) حول جهود الطبيبة الشابة امل (الممثلة المغربية الحائزة على السيزار الفرنسي لأفضل ممثلة رشيدة براكني) في العثور على زوجها الصحافي الذي اختفى، وقيل لها ان رجال الحركة الاسلامية قد خطفوه. وأمام تخاذلّ قوات الامن الوطني في مساعدتها تتوجهّ البطلة بأرادة حديدية (برفقة زميلتها العجوز خديجة المجاهدة سابقاً ايام الثورة الجزائرية) الى شعاّب الجبال، لتكتشف خفايا تواطؤات وجرائم لا تغتفر! (المشاركة الجزائرية الثانية من توقيع بلقاسم حجاج «المنارة»).

أخيراً خصصت بينالي 2006 فقرة تحت عنوان «الوثائقيات العربية» تضم ستة افلام (تحقيقات) تلفزيونية انتجتها وحدة «هوت سبوت فيلمز» التابعة لقناة الجزيرة القطرية، وقُسمت الفقرة الى ثلاثة عناوين هي «المهاجرون العرب في امريكا اللاتينية» ستعرض فيها ثلاثة اعمال: «سيجارة وقهوة» لأحمد مدحت, «حكاية لوريكا» لياسر هواري، «حلم 35 ملم» لهالة لطفي. وهناك عملان تحت عنوان «أدب السجون» هما «اذا تعب قاسيون» لهالا محمد و«سعيد الكفراوي» لأحمد رشوان. وتحت عنوان «يحكى انّ» سيعرض عمل تامر السعيد «غير خدوني».

لقطة من فيلم «ظلال الصمت»

الأفلام الروائية المتوسطة والقصيرة

الجزائر
«100% بقر» إخراج: مزاحم يحيى، الجزائر (2005)
«خيط الحكاية» إخراج: فاطمة الزهراء زعموم، الجزائر ـ فرنسا (2005)
«النافذة» إخراج: الياس بوخيتين، الجزائر ـ فرنسا (2005)

مصر
«الأسانسير» إخراج: هديل نظمي، مصر (2004) النهارده 30 تشرين الثاني (نوفمبر)» إخراج: محمود سليمان، مصر (2004)
«الجنيه الخامس» إخراج: أحمد خالد، مصر (2005)
«يوم الاتنين» إخراج: تامر السعيد، مصر (2004)
«بيت من لحم» إخراج: رامي عبد الجبار، مصر (2005)
«مش زي الباقيين» إخراج: أمير رمسيس، مصر (2005)

الإمارات العربية المتحدة
«سماء صغيرة» إخراج: عبد الله حسن أحمد وعمر ابراهيم، الإمارات العربية المتحدة (2006)

العراق
«لاعب كرة قدم في منتصف الليل» إخراج: شاكر تحرير، العراق ـ السويد (2005)

الأردن
«شرار» إخراج: حازم بيطار، صالح قاسم وعمار قطينة، الأردن (2006) «رجل في فنجان» إخراج: يحيى عبد الله، الأردن (2005)

لبنان
«بالأمس» إخراج: ريما السمّان، لبنان ـ فرنسا (2006)
«تحت تختي» إخراج: جهان شعيب، لبنان ـ فرنسا (2004)

المغرب
«بموافقة الوالدين» إخراج: محمد مفتاح، المغرب (2005)
«كَرّ» إخراج: علي بن قيران، المغرب ـ فرنسا (2006)
«المرحوم» إخراج: رشيد الوالي، المغرب (2006)
«شعرك الأسود يا إحسان» إخراج: تالا حديد، المغرب ـ الولايات المتحدة الأمريكية (2005)
«لا هنا لا لهيه» إخراج: رشيد بوتونس، المغرب (2004)

فلسطين
«ع سكت» إخراج: سامح زعبي، فلسطين ـ فرنسا (2005)
«ياسمين تغني» إخراج: نجوى نجار، فلسطين (2005)
«شتَات» إخراج: علا طبري، فلسطين ـ فرنسا (2005)

قطر
«سائق الاجرة» إخراج: حافظ علي علي، قطر (2005)

سورية
«سيناريو» إخراج: قصي خولي، سورية (2005)
«رحلة ربيعة» إخراج: ميار الرومي، سورية (2006)

تونس
«الأيام الحلوة» إخراج: مريم ريفيل، تونس (2005)
«مذنب حتى إثبات العكس» إخراج: هادي كريسان، تونس ـ ايطاليا (2005)
«أنا وأختي والشيء» إخراج: كوثر بن هنية، تونس (2006)
«نسمة وريح» إخراج: لسعد دخيلي وسنية الشامخي، تونس (2005)

تداعيات

أزمة الحديث عن الأزمة

البشير رويني*

■ في إطار بحث خاص حول واقع الشعر الجديد فوجئت بأكثر من 20 مقالا كلها تدور وتلتف حول كلمة «أزمـة».

كانت الأولى هي فصل مهم من كتاب للباحثة كاتيا زكرياء وصفت فيه ازمة الشعر منذ ثمانينات القرن الماضي. وعنوان الكتاب

A la douverte de la littrature arabe du VIe siäcle Ö nos jours

وقد طبعته مطابع فلاماريون الشهيرة في باريس.

وجودت نور الدين من النقاد الذين يحبون الحديث عن أزمة الشعر العربي المعاصر، وهم بدل ان يحاولوا النظر إليها في سياق تاريخي على أنها مرحلة كغيرها، فانهم يركزون عليها على أنها من معوقات القصيدة العربية.

هذه قضية جديرة بالنظر والتأمل: لماذا يحب العرب دائما حديث الأزمة؟

من السياسة الى الاقتصاد الى المجتمع الى الثقافة والادب.. هناك دائما نزوع الى حديث الازمة!

هل الأزمة هي قدر العرب والواقع العربي والثقافة العربية؟

أم وضعية الادب والشعر خصوصا ليست الا مرحلة من مراحل التاريخ كغيرها، لها ما يميزها وما يصورها فيفصلها عن غيرها.

حديث الازمة في موضوعنا هذا يقتضي ـ في تقديري ـ تصور نموذج ما، متكامل للشعر العربي، وأين هو هذا النموذج؟

مباشرة نهرب الى التفكير في الشعر الجاهلي، ولكن هذا لا يعتبر في الواقع الا مرحلة تأسيس، لا أقل ولا أكثر، ثم هي في الاخير مرحلة كغيرها من المراحل لها ما لها وعليها ما عليها.

وشعر صدر الاسلام كان استمرارا مباشرا للاشكال القديمة مع تجدد في الموضوعات.

في تقديري هناك اضافات تأتي مع كل عصر وتمس كل ميدان بما فيها الشعر، فعندما جاء شوقي تم انتخابه لإمارة الشعر، واصبح هو الذي يلخص شعر العرب قديمهم وحديثهم، بل وبلغ الامرالى ان قيل ان الشعر انتهى الى شوقي ومع شوقي.

وعندما جاء السياب اهتز الشعر العربي هزة عميقة عنيفة جميلة، ولكن السياب نفسه كان إضافة جديدة وفتحا ادبيا مهماً، ومعه نظر الناس الى الشعر السابق على انه في ازمة وعلى أن الشعر الحاضر في ازمة.

وكلمة الازمة هنا هي تعبير عن القطيعة التي حاول السياب ان يحدثها مع المنظومة الشعرية التقليدية وما ترتب على ذلك من آثار تم اعتبارها حينهاعلى انها سلبية جدا.

هذه القطيعة التي اثارت حينها ألسنة وأقلام الكتـّاب والنقاد باعتبارها حربا على النموذج الشعري العربي الكلاسيكي هي نفسها التي أثارت لعاب النقاد والكتاب الجدد أصبحت مذهب الكثيرين منهم.

الحديث عن الازمة عند العرب ـ في تقديري ـ هو وصف دائم لحالة من الاحباط او الخوف إبان المرور من مرحلة الى اخرى.

وهو في تصوري وليد الثقافة العربية الكليانية ذات الاصول الدينية والتي تجد صعوبة في الانفكاك من ماضيها، وتربط عادة نهضتها وتقدمهاوكل مستقبلها بارتباطها بالماضي. ومن كثرة ترديد «الازمة» أصبح كل شيء في ازمة، وحتى نقاشاتنا في ازمة وهي تمتاز بسطحيتها او بحدتها وعنفها او بدورانها في الفراغ.

واذكر مرة نقاشا دار عن أزمة الحداثة (!!) وهو موضوع يحب الكثيرون التعالم بالخوض فيه، وانطلقت المهاجمات والمصادمات والردود الى درجة الاتهام والتكفير.

والحق اقول ان الموضوع ذاته (ازمة الحداثة) لم يناقش البتة وانما ظل القوم يرقصون حوله تجريحا وتكفيرا.

هنا ازمة بالفعل..

واسمح لنفسي هنا ان استعمل كلمة «ازمة» لانني شعرت حينها بمدى الورطة التي دخلنا فيها. أننا نطوف حول الاشكالية ولا نلمسها.

وعندي هنا عندما يتكلم رجل دين عن الحداثة فانه تماما مثل الطبيب الذي يتكلم في عرض الازياء اوالكهربائي عن فلسفة بوذا او تاجر خضار عن ميشال فوكو.

وعندما تقرأ في الشعر ـ موضوع حديثنا ـ وفي الادب عموما حديثا عن الازمة تشعر بعد القراءة بأن النقد في جانب والادب في جانب ثان والازمة في جانب ثالث بعيد.

واذا ما طُلب إليّ كيف تفهم حديث الازمة فانني احب ان اقوم بعملين مهمين في آن: أن ارجع الى اصل الاصطلاح، ثم اعود الى الواقع الذي يلـفنا.

فمصطلح «الازمة» حديث جاء ليصف تلك الحالة من الضغط و اللاهدوء والاضطراب الاجتماعي.

وكان دقيقا في علم الاقتصاد (أزمة مالية مثلا) فلما خرج الى علم الاجتماع بدأ فيه الغموض. فمصطلح (أزمة اجتماعية) او (ازمة مجتمع) مثلا فيه غموض والتباس ولا يحمل على نفس المعنى وفي جميع الظروف والاحوال والمجتمعات.

فقد كان ماركس يطلق هذا المصطلح ليصف المواجهة بين البروليتاريا والنظام الحاكم، يعني المواجهة بين المالك وغير المالك.

وكان ماكس فيبر يرى ان رجال الدين هم علامة أزمة اخلاقية خانقة، فهم لا يظهرون الا عند انحراف المجتمع، فظهورهم اذن دليل حالة مرضية (ازمة اخلاقية) وعلاجها في ذات الوقت.

وكان دوركايم يرى ان مصطلح الازمة يطلق على حالة المجتمع لحظة اطلاق الحريات الاقتصادية والتغير في تقسيم العمل مما يؤدي الى خلل وعدم احترام للقواعد المتعارف عليها والتي هي في حد ذاتها حالة مرضية للمجتمع.

وعموما فان مصطلح الازمة نطلقه في ايامنا هذه على احدى ثلاث حالات:

ـ حالة الخصائص السوسيو سياسية وعلاقات السلطة كما عند كروزي.

ـ حالة الخصائص الهيكلية للتقسيم الاجتماعي كما عند بورديو.

وحالة ازمات الاخلاق والثقافة والهوية، وهنا ينصب حديثنا هذا.

واذا ما عدتُ الى واقع كلامنا، فان حديث الازمة اتصوره تشخيصا دقيقا لحالتين: حالة الكمال او المرجع وحالة الموضوع (Reference) (Sujet)، وللمقارنة بين الاثنتين نحتاج الى ادوات فهم نستعملها في تحليلنا، والى منهجية دقيقة في عرض اشكاليتنا، مع التطرق الى مختلف وجهات النظر هنا ومن مظانها.

والابتعاد قدر الامكان عن دس «الدين» على الاقل في بعض القضايا الفكرية التي محورها العقل،ولستُ هنا من دعاة التكفير او التفسيق وليس هذا مجال حديثي ولكن لان هذه قضايا عصرية جديدة متفتحة متسعة.

ومناهج العلوم الانسانية تصبح هنا مهمة جدا لانها هي المفاتيح الضامنة على الاقل سلامة الطريق الذي سلكناه وسلامة النتائج ـ بعضها على الاقل ـ التي وصلنا اليها.

بقيت نقطة مهمة احبُ ان اشير اليها وهي حالتنا النفسية عند الحديث عن الازمة، فمجرد ترديد هذه الكلمة يعني أننا في احدى اربع حالات:

إما ثقة بالغة في ما لدينا تحجب عنا انوار النقد والانفتاح باسم الخصوصية الثقافية والحضارية فننكر سنة التطور ومبدأ الحوار، وهذه حالة عمى ونحن هنا دعاة جمود!

وإما عدم ثقة بالغ فيما لدينا، في ثقافتنا، ونحن هنا دعاة طلاق،وهذه خطيرة،

وإما خوف مبالغ فيه من الآخر (من الغرب هنا)، خوف فكري على الاقل، وهنا في رأيي تكمن فكرة الخوف من الحداثة مثلا، وهنا نحتاج الى هدوء وتعقل لفصل دائرة المخاوف عن دائرة اللامخاوف !!

وإما ترف ورياء وحب ثرثرة، وتلك لعمري داهية الدواهي !!

فأين نضع حديثنا عن أزمتنا في الشعر وأزماتنا في الحياة ككل؟!

الشعر عندي كالانسان يمر بمراحل من الرضاعة الى الطفولة الى المراهقة الى الكهولة..،وكل مرحلة لها متاعبها وصعوباتها، ولكننا في جميع الحالات أمام انسان يمارس تطوره الطبيعي.

هذا الانسان يشكو في كل مرحلة من ان الناس حوله لا يفهمونه، ولا يقدرون عقله وجهده. فهل وعينا ما يجب ان نعي قبل أي حديث عن الازمـــة؟ أتمــــنى..

---

*شاعر من الجزائر يقيم في فرنسا